النظام اللساني والسيميوطيقا الأدبية

أ.د. عبد الجليل مرتاض
جامعة تلمسان

I) النظام اللساني في مستوى النص

I – 1) النص؟

I-1-1) النص مُسْتَلّة من جنس لفظي

لقد مر بنا تعريفات ومقاربات نظرية حول ماهية النص من جهة، والمدونة من جهة أخرى، وكنا انتهينا إلى التمييز مبدئياً بين كل من المدونة والنص، وألمحنا إلى أن المدونة أعمّ والنص أخص، حتى وإن كان الوقوف على مرجعية أحدهما يتمّ آلياً عن الإطلاع على آخرهما، ولربما وجدنا من يذهب عكس هذا الاتجاه في التقدير بين إشكالية المدونة والنص، لأنك من الصعب أن تنكر أن "سلهاماً" أو "برنوساً" أو نظاماً كلاماً خطياً كان أم شفهياً هو نص دون أن يكون مدونة أو العكس[1].

ولكنا هنا نتحدث عن مجال النص اللساني لغوياً، وسبق أن أشرنا، فيما أشرنا، إلى أنّ النص في إطار هذا المجال مجموعة من الملفوظات أو الجمل اللغوية الخاضعة إلى التحليل، ومن ثَمَّ فإن النص ليس إلا عينة مقتدّة من جنس أدبي معين تشير في مجملها إلى تصرّف لساني يمكن أن تكون خطية أو منطوقة، لأن القواعد الوصفية لأية لغة قابلة لأن تحلّل انطلاقاً من ملفوظاتها التي تنتظم فيها، وأهم مرحلة في هذا التحليل تتعلق برغبة المحلل اللساني من جهة، وبالظروف التي عملت على إنتاج النص المُسْتَشْهَى من جهة أخرى، وهكذا فإن الديالكتوجي الذي يهتم أساساً بمجموعة من الكلمات ذات الأصل الأجنبي في تواصل كلامي معين يجب أن تتوفر لديه قبل أي شيء كتلة كبيرة من الملفوظات المنطوقة سليقياً أو بحرية أو يُقْدِم على ذلك العمل بإيحاء ممن تقصُّوا المسألة، لأن هذه المدونة التي اتخذها سبيلاً لعمله الديالكتولوجي لاشك في أنها تحوي تراكيب كثيرة لا توجد لها أي علاقة مع البحث المقصود بالنسبة للديالكتولوجي (أو العَلْهَجِّي) [2].

I-1-2) النص بنية كلية

ما من شك في أن النص يسلّم لنا في بنية كلية مرتّبة في ذاتها سواء أكان هذا النص خطياً أم منطوقاً قصيراً أم طويلاً، وسبق أن ألمحنا إلى هلمسليف الذي يضفي على كلمة النص معنى أوسع أياً كان نوعه وكثافته. فكلمة "قف" نصٌّ مثلها مثل رواية، بمعنى أي مادة لسانية تحلل أو تدرس تشكّل على حد سواء نصّاً يعود إلى لغة أو لغات عديدة، ويكوّن في الوقت نفسه منظومة قابلة إلى التحليل إلى مستويات وأجناس[3].

وأما الملفوضات المتلقاة التي يتألف منها نصّ فتعدّ في مجموعها كونية univers، ولا تختلف إلا في نطقها وتَمَظْهُر أصواتها و تناغم إيقاع مقاطعها بين لغة وأخرى، فإذا قلنا نحن في العربية:

- جُبِلوا أو عُجِنُوا من طينة واحدة.

يقول الآخر بالقول نفسه بالفرنسية

- Ils sont pétris dans une même pate

I – 2) وجوب ضلاعة المتلقي للغة النص

وانطلاقا من هذه الملفوظات الكونية الكامنة في كل نص، والتي يفترض فيها سلفاً، بل إجبارياً أن تكون متباينة بين كل نص وآخر، فإن اللساني يتلقاها غير مرتبطة en vrac، وليست مهمته تكمن وحسب في فرز مستوياتها، بل مهمته الجوهرية تقوم على تحليل عناصرها وفق الغاية أو القراءة التي يتوخاها، وفق المنهج الذي يتّبعه سبيلاً لذلك، وأهمُّ مما أومأنا إليه أن تكون الحدود مرسومة رسماً واضحاً وصارماً بين مستويات التحليل حسب اهتمامنا من خلال الجمل أو التراكيب التي تعد مادة لسانية أساساً لمدونتنا أو نصّنا، إذ من الغرابة بمكان ألاّ نفصل بين ما هو فونيتيكي ودلالي مثلاً، بل علينا أن نراعي أحياناً العناصر أو البنيات اللغوية في ذواتها تبعاً للتصرفات أو الملابسات التي تمثلها أو الحالات التي تنبئ عنها، إذا لا يعقل ألاّ يأخذ بعين الاعتبار اللساني السياقات الزمنية وهو يحلل تركيبا لغوياً، يجب أن

نتساءل مثلاً: لماذا جرى على السنة و شفاه المسلمين سلفهم وخلفهم المضارع "أشهد" بدل الماضي "شهدت"بل ذهب العلماء إلى أنه لا يجوز "شهدت" على أن الماضي حدث أو تصرّف وضع للإخبار كقوله تعالى حكاية عن أولاد يعقوب "ومَا شَهِدْنَا إلاّ بما عَلِمْنَا"، في حين أن المضارع موضوع للإخبار في الحال كقوله تعالى: "قالوا نشهد إنك لرسول الله"، فضلاً عن كون هذا الفعل "أشهد" يتضمن معنى المشاهدة، لأن الشهادة ليست إلا اسماً من المشاهدة، ومعنى القسم والإخبار في الحال، وينبغي أن نكون ضليعين في لغة النص ذاته، إذ لا يعقل مثلاً أن يجرؤ لساني على تحليل تركيب قرآني مثل قوله تعالى: "والملائكة بعد ذلك ظهير" وهو لا يدرك أن الظهير الدال على المعين هنا يطلق على الواحد والجمع، أو يقدم على لغة قوم دون معرفته بتصرفات أصحابها وهم يلهجون بها حتى يصير الإشكال فيها أحيانا كالوضوح، والوضوح كالإشكال، ومن ذلك التخاطبات المقلوبة لدى العرب، كقولهم: "عرضت الحوض على البعير"و"أدخلت القبر الميت"و"أدخلت القلنسوة رأسي"....لأن الأهمية تعطى للحوض، والقبر، والقلنسوة،... فهذا يشبه التقديم و التأخير، كما على اللساني المحلل أن يراعي مقتضى المقام وحافز الكلام، من ذلك ما رواه أبو عمرو بن العلاء أنه سمع أعرابياً يمنياً يقول: فلان لغوب (أحمق) جاءته كتابي فاحتقرها. فقال له أبو عمرو: أتقول جاءته كتابي؟ أجابه الأعرابي: أليس بصحيفة ؟، نشير إلى هذا إشارة عابرة حتى لا نقول: يجب أن يعرف التطور الدلالي للكلمات الموزّعة في نصين متباينين زمنيا، من ذلك أن "القازوزة " مثلاً إناء كان يشرب فيه الخمر، ونحن نعلم ماذا أضحت تدل عليه الكلمة نفسها.

ولعل المفاهيم التي حاولنا أن نضيفها على النص تسمح لنا بإدراك أن هذا الأخير الذي هو مجموعة من الملفوظات التي قد تعادل لدى البعض مدونة أو خطاباً حسب المفارقات الأربع التي رسمها ميشال أريفي بنية متميزة بذاتها، وهذه البنية المفترض فيها بنية نهائية هي أحد المبادئ الأساس لأي تحليل بنيوي تتبنى منهجية تَقِينَا من الإحالات اللامتناهية إلى مرجعيات تعدّ خارج النص، ممّا يمكّننا من التركيز على دراسة النص ذاته كبنية مستقلة قائمة بذاتها. ويبقى الحديث عن النظام اللساني داخل النص يقتضي منا إثارة ماهية النظام اللساني بالنسبة للسانيات نفسها.

I – 3) البنية اللسانية

1-3-I) لسانيات النص

لا يختلف اللسانيو البنيويون إزاء اللسانيات البنيوية بأنها طورت تقنياتها الإجرائية والوصفية تطويراً مثمراً في ميدان كل من الفونولوجيا (علم وظائف الأصوات)، والمورفونولوجيا (علم أصوات البُنى)، والمرفولوجيا (علم الصرف)، ومقابل تطوير هذه التقنيات التي تساعد على تأويل معرفي داخلي أفضل، ظهرت أنها أقل فعالية فيما يخص المقاربة المنهجية والتطبيقية المتعلقة بمستويات السانتكس الوصفية.

أما لسانيات النص فتدرس موضوعاً يدخل في مجالها، لكن النص بوصفه نظاما متميزاً نسقياً بنفسه أقل تبعية لنظام لساني شامل لا يخصه، لأنه منذ بداية التحليل يتمظهر لنا في أنه ينزع نزوعاً أكثر فأكثر إلى لسانات الكلام منه إلى لسانيات اللغة، بمعنى أنه عادة ما يتبنى استعمالات شائعة حتى ولو تبدو ظاهرياً خرقاً قواعدياً، ويصبح الخطأ الأكثر شيوعاً هو ما تلوكه ألسنة العوام ولربما حتى الخواص، والإقرار بكون لسانيات النص يجب أن تدرس ظواهر الكلام فإننا "نلفت الانتباه مع ذلك، وفي إطار البحث البنيوي، بأن تحليل النص ينتمي كذلك أولاً إلى اللسانيات بوصفها علماً لنظام"(4).

2-3-I) النص بين علاقتي التركيب والاستبدال

والنص لسانياً ما هو إلا تتابع وحدات تتابعا نظامياً فيما يصدر من بلاغات بين باث يقول شيئاً ومتلق يلتقط ما يقال، وهذا التعبير يستدعي طبيعياً تتابع حلقات مربوطة الواحدة منها إلى الأخرى، "ويوحي هكذا بأن الوحدات اللسانية المتتابعة ليست موضوعة الواحدة بعد الأخرى بدون طائل"(5). وأما دراسة هذه العناصر في السلسلة الكلامية فيقال لها تركيبيّة syntagmatique، والتركيبيّة تعترض مع الاختيارات التي يرغب فيها المتكلم في كل نقطة على السلسلة الكلامية، وهذه الاختيارات تنتمي إلى مجال آخر هو المجال الإبدالي paradigmatique(6).

ويطلق اللسانيون العلاقات التركيبية على القياسات التوافقية combinatoires régularités بين الوحدات التي تشكل التركيب، وهذا يذكّرنا ببعض المحاولات التي ظهرت خلال القرن التاسع عشر، والتي كانت تصف كل لغة بواسطة التنظيم الذي تفرضه كلماتها، وميَّز ساعتها شليشير SCHLEICHER في الكلمة نوعين من المركّبات الممكنة: الجذر الحمّال لمعنى الكلمة، والعناصر النحوية التي تبين وظيفته في الجملة، مما جعله يميز لاحقاً بين ثلاثة نماذج من اللغات(7)، والنقطة الضعيفة في هذا البحث أن التركيبيَّة الواحدةla seul syntagmatique المقصودة تتموضع في إطار الكلمة، مع أن تعريف الكلمة في حدّ ذاتها أبعد من أن يكون واضحاً.

I-3-3) دي سوسور والتركيب

كان علينا إذًا أن ننتظر ظهور "محاضرات في اللسانيات العامة"لدى سوسور الذي لم يأل جهدا في التمييز بين أنواع من التراكيب les syntagmes أي من بين توافق الوحدات المحققّة من قبل المتكلمين حسب ما توحي به اللغة، وحسب ما هو معزوّ إلى مبادرة الكلام الفردي، وبناء على الرؤية الديسوسورية فإن تركيباً يرجع إلى اللغة حين يوجد بين هذا التركيب وعناصره علاقة متطابقة في المعنى والصوت بالنسبة لما يربطه بتراكيب أخرى وما يتصل به من عناصر، فالتركيب "poirier" (شجرة إجاص) منه poire (إجاصة)، ومثله ceriser (شجرة الكرز) منه séries (كرز)، وpommier(شجرة تفاح) منه pomme (تفاحة)، ونقول الشيء نفسه بالنسبة للأفعال:

- faire (عَمِلَ) ← dé-faire (خَرَّبَ)
- coller (طلا شيئاً بغراء)← dé-coller (فَكَّ)

ويوضح دي سوسور أن الكلمات التي تمثل خطابا تقيم فيما بينها، وضمن تعاقد معين، علاقات مبنية على صفة الدال الخطية الممتد في الزمن والمتمتع بالاتساع والقياس في بعد واحد، وبعبارة أخرى يقوم خطابنا على صفة الدال الخطية التي لا تسمح بلفظ عنصرين في آن، يسمى الأنساق الناتجة عن السلسلة الكلامية والتي يكون المدى سندا لها تراكيب syntagme، والتركيب عنده متشكل دائماً من وحدتين متعاقبتين أو أكثر.

والرؤية الديسوسورية لاتعني إلا الكلمات داخل الخطاب، والتي تكسب قيمتها من تقابلها مع ما يسبقها أو ما يليها أو الاثنين معاً، وأما الكلمات التي تكون خارج الخطاب فتتسم بشيء مشترك مترابط في الذاكرة بحيث تسود مجموعاتها علاقات مختلفة، فالفعل (علم) في العربية مثلا قد يوحي لنا بما لايقل عن مائة وعشرين ترابطاً خارجياً منبثقاً من جذر واحد، ومن ثم يرى أن العلاقة التركيبية علاقة حضورية على حين أن العلاقات الترابطية علاقات غيابية في سلسلة موجودة بقوة الفعل.

ونبه الرجل إلى أنه لا يكفي اعتبار العلامة الرابطة بين مختلف أجزاء التركيب (مثلاًcontre وtous في: contre tous (أي ضد الجميع) وcontre وmaitre في كلمة contremaitre (رئيس ورشة عمال)، بل يجدر بنا أن نراعي ما يربط الكل بأجزائه، أي أن contretous تقابل من جهة الجزء الأول contre ومن جهة أخرى تقابل tous أو contremaitre تقابل كلا من contre وmaitre مشيراً إلى أن الجملة التي يعدّها النمط الأفضل للتركيب تنتمي إلى الكلام لا إلى اللغة نافياً أن يكون التركيب عائداً إلى الكلام، باعتباره الكلام خاصية من خاصيات حرية الإنسان، وما يعود إلى اللغة من تراكيب جاهزة ومبتذلة، وهي قليلة، لا تنم عن استبعاد انتماء الجملة إلى الكلام، مقراً بوجوب أن نسند إلى اللغة لا إلى الكلام جميع أنماط التراكيب المبنية معترفا بأنه لا توجد حدود واضحة في مجال التراكيب بسبب وقائع اللغة التي هي علامات الاستعمال الجمعي ووقائع الكلام التي هي من حرية الفرد.

II) ميشال أريفي والسيميوطيقا الأدبية

II – 1) كيف نتعامل

مما عاد تقليدياً أن قارئنا يدّعي أنه يقرأ نصاً قراءة لسانية أو سيميوطيقية جديدة نسبياً يجد نفسه أمام شبكة أو "عصابة " من النظريات أو الإحالات المتقاطعة والمتناصة تارة إلى درجة التضامن والتعصب، أو المرجعيات و الأفكار المتضاربة والمتصادمة تارة أخرى إلى درجة العداوة والقطيعة، وإذا كنت أنا لست من هؤلاء ولا أولئك لسبب بسيط، هو أني لم أبلغ بقراءتي السطحية والتابعة بَعْدُ أحدَ هذين المستويين، لكوننا ألفينا أنفسنا نعمل في محيط لا يتناص ولا يتضامن هنا إلا ليتضارب ويتصادم هناك.

الحق أقول، إلى جانب الآراء ة والأفكار الجليلة التي أشرت إليها عرضاً فيما سلف للسانين ونقدة غربيين أجلاّء، فإنه من غير المنصف، ونحن نتحدث عن بنية النص الأدبي في هذا العرض، أن نتجاهل أو نتناسى ميشال أريفي Michel arrivé، وسنجترئ هنا بالإحالة على أفكاره المنهجية والإجرائية النيِّرة التي جاءت في أحد أعماله "السيموطيقية الأدبية la sémiotique littéraire"، بحيث يعد هذا المبحث زبدة ما اهتدى إليه ميشال أريفي ربما حتى الآن .

ولا يمكن أن نشير - فضلاً عن أن نتحدث - إلى كل العناصر التي درسها وأثارها الرجل في مبحثه هذا، بل سَنَقْصُر إشارتنا على ما نحسبه أن له صلة بالنص الأدبي من جهة، وعلى ما نعتقد أنه يعمل على إثراء هذه القراءة النصية التي مهما بلغت، فإنها ستظل قاصرة وعميقة أمام هذه المدونة الأدبية الكلاسيكية التي عدّها من تقدمنا منذ قرون، مدونة تجاوزت كونها نصاً كسائر النصوص التي سبقتها أو عاصرتها أو لحقتها، بما في ذلك النصوص الأموية والعباسية التي يبتكر مثلها في فضاء الأجناس الأدبية العربية حتى الآن.

II – 2) الأدب في تصور أريفي

II-2-1) الأدب نظام من العلامات

فبعد أن يطرح ميشال أريفي تساؤلات حول الأوصاف والمضامين التي عادة ما تتوّج بها كلمات مثل : littéraire (أدبي) أو littérarité (وضعية النص الأدبي) أو littérature (أدب)، وبعد أن يطمئنَّ إلى حدّ ما إلى أحد نصوص ألجيرْداسْ جليان قريماس بأن "الأدب بوصفه خطاباً مستقلاً في ذاته يتضمن قوانينه ونوعيته الجوهرية littérarité intrinsèque" التي كانت تريد أن تؤسّسه فُهِمَت بسهولة على أنها دلالة اجتماعية ثقافيةconnotation socioculturelle[(8)] قابلة للتغييرvariable تبعاً للزمن والفضاء الإنساني"[(9)] دون أن يأخذ به كلياً، وبعد أن يعرف السيميوطيقا تعريفاً تقليدياً للسانيين على أنها الوصف لأنظمة من العلامات، ودوال تطبيقية، فإنه يلاحظ أن حضور الأدب في مدونات سواء أكانت شفهية أم كتابية، لسانية أم غير لسانية، إنسانية أم ترجع إلى لوائح فضائية أخرى، لا يعدو أن يعتبر كنظام من العلامات أو دوال تطبيقية[(10)].

وبناء على ما ألمح أليه أعلاه، فإن ميشال أريفي يَجْنَح، ومنذ البداية إلى تعريف الأدب سيميوطيقياً مشوباً بالاتجاه السيميولوجي الديسوسوري العام الذي يجعل كل ما هو لساني منضويًا تحت ما هو غير لساني.

إنّا لنرى بادئ ذي بدء أن مفهوم الأدب في غير تصور ميشال أريفي مجموعة من النصوص المستقبلة (بفتح الباء) كأدبيات وسط تزامن اجتماعي ثقافي معين، غير أن ميشال يعلّق على هذا التصور المعطى للأدب بقوله:"نلاحظ أن هذا التعريف يراعي مشاكل التحديد لتصور وضعية النص الأدبي التي تفهم كنوعية لنمط من النصوص، ومن جهة أخرى، فإن التدخل لمفهوم التزامن الاجتماعي الثقافي يقصي المشاكل التي تطرحها التغيرات التي تلاحظ من عصر إلى عصر في الأحكام المصوغة حول أدبية النصوص"[(11)].

II-2-2) النص والخطاب

وبشأن النص، فإنه يورد له أحد التعاريف التي ترى أنه تلك المجموعة المؤلفة من قبل الخطاب و الحكي le récit، إلى جانب تلك العلاقات التي تستقر بين الخطاب والحكيوأما الخطاب فليس إلا ذلك الترابط أو التسلسل لوحدات لسانية صرف من الفونيمة إلى الجملة، والتي تفصح عن النص، ومن نواحي أخرى، فإن النص الأدبي يُشبَّه بجمل كبرى أو بتسلسل بعدد محدود من الجمل الكبرى ضارباً المثل بنص الغريب لكاموس l’étranger de camus الذي يمكن أن يحلل إلى عدد من المقاطع التي يمكن لكل واحد

منها أن يشكل صفة جملة "فلوصف هذه الجمل للقصة تستعمل إذاً المفاهيم الشبيهة بتلك التي تستعمل لوصف الجمل للخطاب، وهكذا، فإن المفاهيم التي وضعت من فريماس مستعارة empruntées بعد خضوعها مع كل ذلك إلى عدة تعديلات من تلك التي كان لوسيان تنيير LUCIEN TESNIERE يستعملها من أجل وصف البنية لجمل للغة طبيعية"[12] مستلهماً تعريف تنيير TESNIERE للعوامل les actants بوصفهم كائنات les êtres أو أشياء تشترك في العملية داخل العمل الأدبي.

II-2-3) الفواعل والفئات

ومن ثم فإن الفواعل[13] les actants تحدد هوياتهم في ثلاثة أقسام:

1) أول العوامل الذي يقابل الذات le prime actant le sujet
2) العامل الثاني (الموضوع l'objet)
3) العامل الثالث (الموضوع الثانوي l'objet secondaire)

ولكي يجعل ڤريماس هذه المفاهيم مؤهلة ليس فقط لبنيات الجمل، بل حتى لبنيات القصة le récit فَمَفْصَل هذه العوامل الثلاثة إلى ثلاث فئات:

1) فئة ذات vs (versus) ضد الموضوع.
2) فئة المرسِل vs المرسَل إليه، ويرى ڤريماس أن المرسل le destinataire هو العامل الذي يعمل على تحريك الذات ليحصل منها رد فعل يكلفه بمهمة ما، في حين أن المرسل إليه le destinateur يكون في فائدة الذات التي تسعى إلى الحصول على الموضوع، ومن ثم فإنه في بعض الحالات يوجد لبس بين المرسل إليه و الذات
3) فئة معارضة vs للعامل المساعد adjuvant

II-2-4) الحكي عند أريفي

وبناء على هذه المعطيات المشار إليها أعلاه، ومع ما يكنفها من التباسات، فإن ميشال أريفي ينتهي إلى صياغة تعريف مختصر للقصة le récit أو الحكي "مع أخذ هذه الملاحظات بعين الاعتبار، يمكن تعريف الحكي أو القصة le récit كمجموعة من العلاقات التي تتمركز qui s'établissent بين مختلف الوحدات العامليّة actantielles"[14].

II – 3) الإنهاء البنيوي الحكي المنتهي

وبعد أن يستعرض ميشال أريفي بعض الأفكار النقدية اللسانية كفكرة هنري ميتران الذي كان يرى أن نص عمل أدبي نص مستمر ونهائي ومغلق clos محتجز بين أول كلمة في السطر ونقطة نهاية صفحته، ينتقل إلى إعطاء كل ما هو حكي أو خطاب قصصي تشريحاً أقرب إلى صيغة منطقية وعلمية منه إلى قراءة لسانية أكاديمية، تشريحاً خص به ما أسماه الإنهاء البنيوي la finition structurelle قائلاً: "يمكن لنا أن نعتبر أن الإنهاء البنيوي يعني القصة le récit منها التي تشكّل الانتهاء clôture. ويمكن أن نتصور تعريفاً للإنهاء البنيوي[15] بوساطة البرمجة للقصة : كأن نقول تكون القصة مغلقة عندما تكون مجموعة مقاطعها مورطة impliqué من قبل أول مقطع من مقاطعها، وتمثل المأساة الكلاسيكية في إطار هذه الرؤية أحسن مثال للقصة المغلقة، غير أنه من الممكن ألا يتم تدخل لتحديد الانتهاء للقصة إلا خلال المقطع الأخير لهذه الأخيرة، وعدة حالات ،فإن الفعل المركزي لهذا المقطع الأخير لا يمكن له أن يتواصل أبعد من عبارة مورط terme impliqué بوساطة البنية نفسها لمحتوى هذا الفعل action: تعدّ القصة بنيوية إذا كانت منتهية أي مغلقة، لكن في حالات أخرى،يمكن لفعل المقطع الأخير أن يتواصل أبعد من نهاية الخطاب: قصة مفتوحة..." [16] .

II – 4) التلاعبات السردية داخل العمل الحكائي

ويواصل حديثه لبيان التلاعبات الفنية والسردية والتقنيات البنيوية للفئات الثلاث وتفاعلها داخل العمل الحكائي ليخلص إلى القول بأن القصة مثلها مثل الخطاب يمكن أن تكون، وحسب الحالات، مفتوحة أو مغلقة، ليعلن أن هناك، من الناحية النظرية أربع فئات للنص:

1) خطاب مغلق، قصة مفتوحة discours clos, récit clos.
2) خطاب مغلق، قصة مفتوحة discours clos, récit ouvert.

3) خطاب مفتوحة، قصة مفتوحةdiscours ouvert, récit ouvert.
4) خطاب مفتوح، قصة مغلقة discours ouvert, récit clos.

وإلى هذه النتائج النظرية التي لا نعتقد أنها الوحيدة الممكنة لاستنطاق عمل قصصي أو تحليل نص أدبي، نعتقد أن الرجل ينحو مناحي بعيدة عن أفكار لسانية نابعة من دي سوسور وهلمسليف بوجه أخص، ولكنه لا يلبث أن يعود من بعيد ليحوم على الإشارة اللسانية في منظور هلمسليف الذي كان يرى أن العلامة اللسانية مؤلفة بوساطة العلاقة السيميوطبقية المتمركزة بين التعبير والمحتوى، وهذه الثنائية الهلمسليفية تقابل تتابعاً الدال والمدلول لدى دي سوسور.

II – 5) النص الأدبي موضوع سيميوطيقي

والأهم مما ذكره وفصله ميشال أريفي أن النص الأدبي يعتبر كموضوع سيميوطبقي comme un objet sémiotique مثله مثل حلم من الأحلام le rêve aussi est un objet sémiotique بمعنى أن موضوعاً سيميوطيقياً ذو عدة محتويات منتهيا إلى القول "إذا أخذنا بعين الاعتبار الوصف الذي أسقطناه حتى الآن على النص الأدبي بوصفه موضوعاً سيميوطيقياً، فإنه من السهولة بمكان أن المناهج التي وضعت للتوضيح بغية وصف ألسنة طبيعية معرضة لفقد جزء كبير من فعاليتها بالنسبة إلى الأدب"(17).

II – 6) تعقيب وتحليل

ومما أعتقده أن هذه الأفكار أخص بأجناس أدبية حديثة تخضع سلفاً لتقنية بنائية تتناسب مع طبيعة جنسها الأدبي أو الإبداعي، ولا أحسب أنها تُمَارَس شمولياً على كل النصوص، ولاسيما النصوص التي لا تدخل في إطار هذه التحديدات الأربعة، كما أحسب أن هذه المجالات الأربعة هي كل ما تسكن وتتحرك فيه القصة، بل أجزم أن النص هو الذي يميط لثامه، ولكنه لا يميطه بصورة معينة سلفاً، وليس من باب الضرورة الملحة أن تكون القصة، وفي كل حال، مثلما وصفها ميشال أريفي، إذ ما أدرانا أن ثمت قصصاً و(لاسيما الروايات) غير مغلقة ولا مفتوحة، أو غير مفتوحة ولا مغلقة، بل هي عَوَان بين ذلك.

كل عملية إبداعية من تصميم خيالي أو حقيقي ليست جديرة بعالم الإبداع، وسواء انطلق من شيء (+) أو لا شيء (-)، ولربما يسود نقدنا اعتقاد راسخ بأن النصوص المسماة كلاسيكية غالباً ما تتخذ خطابها سلفاً من معطيات مبتذلة، كالنصوص الشعرية العربية القديمة، ولذا فهي تتحرك من معلوم إلى مجهول (+ ، -)، ولربما تحركت من معلوم إلى معلوم (+ ، +)،وقلما تتحرك من مجهول إلى معلوم (- ، +)، فضلاً عن تحركها من مجهول إلى مجهول (- ، -)، وهذه الانطباعات غير منصفة لهذه النصوص التراثية، لأن أصحابها سليقيون، وكان نسجها طبيعياً، وإنتاجها ورد نتيجة لردودات فعلية بريئة، وما فيها من مظاهرات تكرارية لا ينم في روحه عن تكرار،، بل عن ثقافة معيشة، وفلسفة فنية، ودواعي جمالية، وعوامل نفسية واجتماعية موروثة.

هوامش الدراسة :

1 - أي عَالِمُ اللهجات، أما علم اللهجات نَفسه، فيمكن نحته بكلمة "العَلْهَجَة"، والنسبة إليه: عَلْهَجِيّ، علهجيّون، والاشتقاق منه: عَلْهَجَ (فَعْلل) يُعَلْهِج عَلْهَجَة، ...إلخ.

2 - في عملنا "في عالم النص والقراءة" الذي هو الآن بصدد الطبعة الثانية (ديوان المطبوعات الجامعية).

[3] - **Introduction à la méthodologie structurale de la linguistique, Roger, G. Van de valide, éditions Labor, Bruxelles, 1973, P :115**

[4] - **La linguistique (guide alphabétique), sous la direction d'André, éditions de Noël, p :25.**

5 - أنظر المرجع أعلاه، ص:25.

[6] - أنظر: التحولات الجديدة للسانيات التاريخية، عبد الجليل مرتاض، دار هومة (الجزائر)، ط: 2005، ص: 114-112، و مباحث لغوية في ضوء الفكر اللساني الحديث، عبد الجليل مرتاض، دار ثالة (الجزائر)، ص:103

[7] - في الواقع أن مصطلح connotation لا يبرح غامضاً فيما نترجمه من مصطلحات لسانية غربية (ظلّ المعنى، دلالة غير مباشرة، مفهوم مرافق للمفهوم الأصلي، تضمين، دلالة حافّة مفهوم مقترن... إلخ)

8 - **Pour comprendre la linguistique, Mrina Yaguello, éditions du seuil, 1981, Paris , p :106**

9 - نفسه ص:107

10 - المرجع السابق ص:107

11- مرجع سابق ص:108

12 - قلنا فواعل حملا على ما لا يَعْقِلُ مثل: حائط وحوائط، وليس على ما يعقل مثل: حائض وحوائض أو على من يعقل مما هو مذكر (لان هذا الأخير لم يأت فيه فواعل إلا في كلمات جمع مشهورة مثل: فوارس، نواكس ... لفارس وناكس.)

13 - المرجع السابق ص:109

14 - ترجمنا: الإنهاء البنيوي مقابل la finition structurelle ، ويمكن أن تترجم هذه الجملة الإنجاز البنيوي تبعاً للسياق المفضل.

15 - المرجع السابق ص:114-115

16 - المرجع السابق ص:121